

من الذاكرة

"طه حسين والثورة المصرية ١٩٥٢"

د. محمد صابر عرب

عندما قامت ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ في مصر كان طه حسين قد جاوز الثالثة والستين من عمره، قضى منها أكثر من أربعين عامًا في معارك فكرية وسياسية لم تتوقف إلا بقدر ما تلبث أن تتفجر مرة أخرى. وكان من أوائل الذين رحبوا بها، وكان رد فعله التلقائي حينما وصلتته أنباء الثورة وهو يصطاف في شمال إيطاليا أن راح يهتف: "قامت الثورة في مصر"، وبلغ به الانفعال لدرجة أنه سقط مغشيًا عليه، على حد تعبير زوجته "سوزان" التي علقت على هذه الواقعة في كتابها الشهير: «معك» قائلة: "كنت فخورة فقد عاشت مصر أجمل ساعات تاريخها".

لقد كان أول من أطلق عليها كلمة «ثورة» وفي الوقت الذي راح فيه جمال عبد الناصر ورفاقه يبشرون بإجراءات اقتصادية واجتماعية تستهدف تحقيق العدالة كان طه حسين يمضي في كتاباته مستلهمًا من الثورة روحًا

جديدة مطالبًا بمزيد من الإجراءات التي تنصف الفقراء وتخفف عن كاهلهم
عناء ما لاقوه من قسوة.

وبينما راح الناس يتساءلون عن مصير الملكية بعد عزل فاروق، كان طه
حسين من أوائل الداعين إلى النظام الجمهوري: "لقد شقيت مصر بالنظام
الملكي شقاءً متصلًا، وقد آن للمصريين أن يدركوا أن الحكم لن يكون إلا لهم،
وأن الحكام لن يكونوا إلا خدماً للشعب، ينصبهم ويرزقهم أجورهم ويسألهم عما
يفعلون".

كان رجال الثورة يعرفون جيدًا قدر طه حسين رغم ما كان بينه من علاقة
وثيقة بحزب الوفد، وكانوا على ثقة من أفكاره الداعية إلى التغيير الاجتماعي
والسياسي، لذا فقد قدروه وأتاحوا له حرية الكتابة والتعبير عن آرائه التي كانت
في مجملها تعبيرًا عن طموحات الثورة وأهدافها.

وفي الوقت الذي تعرض فيه الحزبيون والسياسيون القدامى لمحاكمات
ومطاردات -وبعضهم حُوكم في محاكم استثنائية- اختلفت مسمياتها ما بين
"محكمة الغدر" و "محكمة الثورة" ... راح الرجل يدعو إلى مساندة الثورة في
سبيل أن يعود الدستور، وتعود الديمقراطية عقب انتهاء الفترة الانتقالية التي
حددها مجلس قيادة الثورة.

وعندما أنشأت حكومة الثورة صحيفة "الجمهورية" لتكون معبرة عن سياساتها راح طه حسين يواصل كتاباته فيها بانتظام، ثم اختير رئيساً لتحريرها منذ يوليو ١٩٦٠، وعندما تولى حلمي سلام رئاسة تحريرها يوليو ١٩٦٤ توقف طه حسين عن الكتابة فيها، وقد كتب بمرارة شديدة: "لقد استغنوا عن خدماتي ضمن عدد من المحررين".

أعتقد أن طه حسين قد بدأ يستشعر الخطر على الديمقراطية التي دافع عنها منذ ثورة ١٩١٩، بل لعله قد شعر بقدر من المرارة لأن الدستور الذي شارك في وضعه لم ير طريقه إلى النور، وأن الثورة وقد مضى على قيامها اثني عشرة سنة لم تكن جادة في احترام الديمقراطية! وعلى الرغم من ذلك فلم يتوقف الرجل عن دعم الثورة والإشادة بإنجازاتها والتأكيد على أهمية وجود المفكر بجانب الحاكم، لذا راح يدعو المثقفين إلى دعم الثورة، ولعله في ذلك كان يتخوف من سطوة العسكر على حساب المثقف.

لقد كان طه حسين من أوائل الذين حذروا من خطورة السياسة الأمريكية التي كانت تستهدف الانفراد بالمنطقة، ولعله كان يقرأ المستقبل حينما كتب تحت عنوان: "شراء الشعوب"، مشيراً إلى أن الولايات المتحدة الأمريكية تريد أن تشتري الشرق الأوسط، ولكن البيع لن يكون حرّاً؛ وإنما سيكون محاطاً

بالتربيب والترهيب، فالدولة المشتريية هي أغنى الدول وأقواها، والرئيس الأمريكي يطالب البرلمان بالمزيد من المال لىساوم شعوب الشرق الأوسط على استقلالها وحريتها، ويطلب منها الإذن في استخدام القوة إذا تطلب الأمر ذلك. وهذا فن جديد من فنون الاستعمار.

لم يكن طه حسين بوقاً للثورة في كل أقوالها وسياساتها، بل إنه قد لزم الصمت حينما قامت الوحدة المصرية السورية (١٩٥٨ - ١٩٦١) فلم يعلق ولم يكتب، ولعل صمته كان له مغزاه الدال، وعندما حدث الانقلاب على الوحدة كتب عدة مقالات معبراً بمرارة عما حدث واصفاً الانفصاليين بأنهم فئة من الطغاة البغاة، بينما وصف موقف عبد الناصر بالنبل والشرف، حين أثر سلامة الوطن السوري وخلقى بين السوريين وبين ضمائرهم.

من الواضح أن طه حسين لم يكن ضد الوحدة؛ وإنما كان يرى أن تحقيقها يتوقف على الوقت والظروف الموضوعية لقيامها دون عجلة، وقد كان يدرك التباين الواضح بين النظام الاقتصادي الجديد في مصر والآخر في سوريا، كما كان على علم بالصراعات الحزبية في سوريا.

ولكن على أية حالة فقد أدرك الرجل أن المثقف لا يمكن أن يكون بوقاً للسياسي، لذا فقد كان يلتزم الصمت في أحيان كثيرة، فعندما صدر دستور

١٩٥٦ لم نجد مقالاً لظه حسين ناقدًا أو داعمًا، خاصة وأن الثورة قد أودت بمشروع دستور لجنة الخمسين -الذي كان عضوًا فيه- بعد أن أخذ الدستور الجديد بمبدء الجمهورية الرئاسية، الذي جعل اختيار رئيس الجمهورية بالاستفتاء العام بدلاً من الانتخاب، كما خوله الانفراد بالسلطة التنفيذية بما في ذلك تعيين الوزراء وترأس مجلسهم.

لم يكن ظه حسين من أنصار هذا التوجه، بما في ذلك التنظيمات الشعبية التي شكّلها مجلس قيادة الثورة عقب إلغاء الأحزاب السياسية، فلم يكن الرجل مؤمناً بها، ولم يكن مقتنعاً ببرامجها، ولا بشعاراتها، لذا فلم يكتب شيئاً عنها مثل "هيئة التحرير" و"الاتحاد القومي".

لقد توجّس كثير من المثقفين من هذه السياسات، وهو ما دعا محمد حسنين هيكل في حوار قومي عام ١٩٦٠ إلى اتهام المثقفين بأنهم لم يتعاونوا بإخلاص مع النظام، ولم يقدموا الأيديولوجيا التي يسعى إليها، وقد عبر عبد الناصر عن خيبة أمله لقلّة الكتابات الأكاديمية الداعمة للنظام السياسي والاقتصادي الجديد، لقد كان ظه حسين بعيداً عن ذلك كله. وعندما أصدر عبد الناصر «الميثاق» ١٩٦٢ تناول ظه حسين بذكاء وسياسة حاذقة، حينما عبر عن إعجابه بعبد الناصر الذي أنجز هذا العمل، لكنه راح يربط بين المبادئ

الاشتراكية التي وردت في الميثاق، وبين كتابات رأس المال لكارل ماركس، كما أشار بالمعية إلى أن عبد الناصر قد أكد في الميثاق أن النقد ضرورة من ضرورات الحياة الناهضة، وبشجاعة المفكر قال: "إن نفسه لم تطمئن إلى قضيتين وردتا في الميثاق، أولهما: تاريخية تتعلق بما آلت إليه الأحزاب المصرية بعد نضالها في سبيل الاستقلال منذ الحرب العالمية الأولى، وما أثارته من نهضة فكرية ونشاط عقلي لا سبيل إلى الجدل فيه، فقد أيقظوا الشعب وعلموه بما ألفوا من كتب، وما نشروا من أدب، وكنت أود لو أنصفهم الرئيس.

ثانيهما: ما ذكره الرئيس من أن العلم للعلم في حد ذاته وهي مسئولية لا تستطيع طاقاتنا الوطنية أن تتحمل أعباءها في هذه المرحلة.

أعتقد أن طه حسين بدأ متحمساً للثورة داعماً لسياساتها ومبادئها ابتداء من عام ١٩٥٢، حتى عام ١٩٦٤. لكن عقب ذلك وحتى وفاته ١٩٧٣ ابتعد كثيراً عن الكتابة في المجالات الداعمة لأهدافها، وبحكم موقفه السياسي والاجتماعي قد شعر بأن الثورة قد ابتعدت كثيراً عن أهدافها التي قامت من أجلها، لذا فقد لزم بيته رغم أن الدولة قد كرمته حينما منحته جائزتها التقديرية في الآداب ١٩٥٨.

وفي نهاية حياته يتحدث بمرارة شديدة إلى صديقه غالي شكري، قائلاً:
إن البلد لا يزال متخلفاً وقعيداً ومريضاً وجاهلاً، وأن نسبة الأميين كما هي
والمثقفون يتناقصون بسرعة تدعو للانزعاج، يخيل إلي أن ما كافحنا من أجله
هو نفسه لا يزال يحتاج إلى كفاحكم وكفاح الأجيال المقبلة بعدكم.. أودعكم بكثير
من الألم.. وقليل من الأمل.

د. محمد صابر عرب
رئيس الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق
القومية المصرية

Email: chairman@darelkotob.gov.eg